الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي[1]

القصص فن من فنون الأدب الجليلة، يقصد به ترويح النفس باللهو، وتثقيف العقل بالحكمة. وله عند الفرنج مكانة مرفوعة، وقواعد موضوعة. أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به، لانصرافهم عما لا رجع للدين منه، ولا غناء للملك فيه؛ وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي؛ ولأنه نوع من أنواع النثر، والفن الكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية، حين وضع ابن المقفع الفارسي مناهج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص. فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليلة ودمنة، وهزار أفسانه (الف خرافة) ودارا والصم الذهب، حديا العرب ونموذجا لهم في وضع ما وضعوه منها.

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا لياليهم بالمنادمة والمسامرة. فتنافس الندماء في حفظ الأقاصيص والأسمار، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاها. واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملائهم وأعراسهم. واشتدت هذه الحاجة عندما توالت المصائب والمحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة، وعنف المتغلبين من المغول، وإخلاد الشعب في مصر إلى التبطل والمجون، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون؛ فتقدم إليهم القصاص والمحدثون، وهم للسوقة أشبه بالندمان والمهر حين للملوك فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان، وأخبار الجان، وأعمال السحرة، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان. ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأنماها الاختلاق حتى

---

(1) راجع في هذا الموضوع كتابنا: (في أصول الأدب).

قيض الله لهذه السير من دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة. ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الإفرنجية القديمة، فكان من ذلك قصص عنترة [1] وبني هلال، وسيف ابن ذي يزن، والأميرة ذات الهمة، والظاهر بيبرس، وعلي الزيبق المصري، وفيروز شاه. في رأيي أن هذه القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة، فبعضها حين نشوب الحروب الصليبية، وبعضها بعد سقوط بغداد. أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها، وموضوعات حوادثها، وأسماء أشخاصها. وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بين من لغتها المشوبة، وأساليبها المبتذلة، وخيالها الغريب القوي من أثر المخدرات. وحال الاجتماع يومئذ، ونشوب الحروب الصليبية، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى، ومدح البطولة، وتمجيد القادة، إثارة للنفوس وتحميسا للجند، كما كان المسلمون يفعلون في القرن الأول للهجرة [2].

ذلك كان مولد القصة في الأدب العربي وهو شبيه بمولدها في الأدب الغربي؛ فكلتاهما ولد على أثر الملاحم، وكلتاهما ابتداء بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة. إلا أن القصة الغربية لاحظتها عناية الأدباء، ورعاية النقد، واتساع الحضارة، وتقدم العلم، فنمت وتقدمت. أما القصة العربية بمعناها

---

(1) قصة عنترة هي قصة حماسية غرامية تمثل حياة العرب في الجاهلية تمثيلا صادقاً، وتصف أخلاقهم وحروبهم وصفا ناطقاً، ونبعت في النفس الحمية والنجدة والوفاء والسخاء، فهي أفضل القصص العربية وأولاها أن تسمى (إلياذة العرب). أسلوبها شائق منسق، وقد تدركه الركاكة أحياناً. ونثرها مسجوع متكلف مطرز بقصائد بعضها مسموع، وبعضها مصنوع. والراجح في الرأي أنها تجمعت مما سار على ألسنة الرواة والسمار طوال السنين من أخبار العرب ووقائعها، ونمت بالمناقلة والمبالغة، حتى انتهت إلى رجل حافظة يدعى يوسف ابن إسماعيل في عهد العزيز بالله الفاطمي (365 – 376) فألفها بأمره الهاء للشعب عن التحدث بريبة حدثت في بيته. ثم أصدرها تباعا في اثنين وسبعين جزءا، ونسبها إلى الأصمعي إجلالا لقدرها، واحتيالا لنشرها،

(2) ذكر ابن الأثير سنة 77 هـ أن عتاب ابن ورقاء سار في أصحابه قبل المعركة يحرضهم على القتال ويقص عليهم. ثم قال أين القصاص؟ فلم يجيبه أحد فقال: أين من يروي شعر عنترة فلم يجبه أحد الخ.

الفني المعروف فظلت في حجر الطفولة ومهد الخمول يلهو بها العامة، ويأنف منها الخاصة، ويصد عنها الأدباء والكتاب حتى قبروها مدرجة في لفائف الميلاد. وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال والمقامات.

الحكايات

ألف ليلة وليلة[1]

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس. وأبدع ما أثر عن هؤلاء منها: كلستان للسعدي، وأصل ألف ليلة وليلة. وهذان الكتابان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب. على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية. ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه. وأصبح الكتاب عنوانا عريضا من عناوين الأدب العربي وأثراً خالداً من آثار بنيه.

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهر زاد وجاريتها دينا زاد. وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتفريغه فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود واليهود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام. وبقى بابه مفتوحا للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة، فتكامل نقصانه واستتم بنيانه، وتضاءل ما فيه من وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أقاصيص الجان ومخاطر الشجعان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة، التي تستهوى القلب، وتشحذ الخاطر، وتخصب المخيلة.

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم في العصور الإسلامية الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعي والفيلسوف المؤرخ. ومن ثم عنى به الفرنج عناية خاصة فترجعوه إلى لغاتهم، وأفردوه بأبحاثهم. أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم فأخبار العرب ونوادر الخلفاء وما ترجم في الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة. وأما ما وضعه القصاصون المتأخرون من عامة مصر والشام فركيك العبارة، عامي الألفاظ، مبتذل التراكيب، إلا أن مساق الأحاديث جيد، ورباط الحوادث متين.

---

(1) اقرأ عن هذا الكتاب بحثاً علمياً مفصلا في تاريخه وتحليله في كتابنا: (في أصول الأدب).

الأمثال

كليلة ودمنة

أما الأمثال فمنشأها الشرق؛ لأنه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف. انبعث في صدور الضعفاء المستبعدين صدى خافتا لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفسا ولا طريقا إلى آذان الطغاة إلا هذه الكنايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصح وعظة. وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق. وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم، وإيزوب الرومي، وبيدبا الهندي. وأشهر من كتب فيه ادباء العربية ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة. وهذا الكتاب من خيرة الكتب في تقويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة: وضعه باللغة السنسكريتية بيدبا الهندي لدبشليم الملك منذ عشرين قرنا ونيفا على ألسنة البهائم والطيور، وعقده على أثنى عشر باباً ثم ترجم إلى الفهلوية، ونقله عنها إلى العربية عبد الله ابن المقفع، وصدره بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية، فإنها بقيت أصلا تفرعت عنه الترجمات القديمة والحديثة. وزاد الكتاب بتوالي الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين باباً.

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (وهي موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشرونها تباعا بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمي لا يعرف اسمه. ألفه في كشمير حوالي القرن الثالث قبل الميلاد في مقدمة وخمسة أبواب وسماه (تنترة) على ما رواه هِرتال Hertal، ورتال هذا هو الذي نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشي وطبعه في ليبسك وبرلين في مجلدين سنة 1909 م.

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة تنترة) ترجمها إلى الفهلوية بروزيه طبيب أنوشروان بأمره. وأضاف إليها أبواباً من القصص الهندي، وعن هذه الترجمة نقل ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه

والراجح أنه أضاف إلى مقدمة بروزيه ما يدل على الشك في الأديان. وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيفه. وفي بعض النسخ زيد على الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما، وهما باب مالك الحزين والبطة، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين. انتهى.

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله ابن المقفع، وما نسبه إلى علماء الهند إلا أملا في رواجه وانتشاره؛ ولكنه في اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء في كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار. وقد نظمه كثير من شعراء العرب كأبان اللاحقي وابن الهبارية، وعاوضه سهل ابن هارون بكتاب سماه (ثعلة وعفرة).

ثم اشتهر بالكتابة في الأمثال أيضا ابن الهبارية المتوفى سنة 504 هـ ناظم كتاب الصادح والباغم، وهو منظومة في ألفى بيت على أسلوب كليلة ودمنة. ثم ابن عرب شاه الدمشقي المتوفى سنة 854 صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كليلة ودمنة وجعلها في عشرة أبواب، إلا أن أمثالها يعيبها التطويل والحشو، وإنشاءها بضعفه التعمل والتكلف.

المقامات وكُتابها

المقامة: حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحة.

ومعنى المقامة في الأصل المقام أي موضع القيام، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان، ثم كثرت حتى سموا الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلساً، إلى أن قيل لما يقام فيها من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس، فيقال: مقامات الخطباء، ومقامات القصاص، ومقامات الزهاد: وقد نشأ هذا النوع من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الصناعي الأنيق. وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم.

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها " الفن للفن " وتجمع شوارد اللغة ونوادر التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشي يعجب أكثر مما يؤثر، ويلذ أكثر مما يفيد. ولم تراع قواعد الفن القصصي فيما كتب من هذا النوع؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه.

وتدور المقامة على حادث عادي يسند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصي بالبطل، كأبي زيد السروجي في مقامات الحريري، وأبي الفتح الإسكندري في مقامات البديع؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة، فهو يراه في كل حادثة، ويسمعه في كل مجلس، ويفجأه في كل سر، ثم يروي للناس ما عيه من خير أو شر. ذلك هو الراوي، كعيسى ابن هشام في مقامات البديع، والحارق ابن همام في مقامات الحريري.

أما كُتابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثا عرضها عرضاً تصويرياً دقيقاً كانت الطور الأول لنشوء المقامة. ثم جاء بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة 398 هـ فأملى أربعمائة مقامة في الكدية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندري على لسان عيسى ابن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة. وقد مضى الكلام عنها في ترجمته. ثم جاء بعده الحريري

المتوفى سنة 516 هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أبي زيد السروجي على لسان الحارث ابن همام، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضاً. ثم عالج المقامات بعد هذين النابغين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوهما كالمقامات السُّرقَسْطية لابن الأشتركوني المتوفى سنة 358 هـ وهي خمسون مقامة أنشأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريري بالبصرة، وقد أتعب خاطره وأسهر ناظره ولزم في نثرها لزوم ما لا يلزم. حدث فيها المنذر ابن حمام عن السائب ابن تمام ومقامات الزمخشري المتوفى سنة 538 هـ وهي مشهورة والمقامات المسيحية لأبي العباس يحيى ابن سعيد ابن ماري النصراني البصري الطبيب المتوفى سنة 586 هـ نسجها على منوال الحريري. ثم مقامات أحمد ابن الأعظم الرازي وهي اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة 630 هـ وجعل الراوي فيها القعقاع ابن زنباع وغيره. والمقامات الزينية لزين الدين ابن صيقل الجزري المتوفى سنة 701 هـ وهي خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريرية. نسبها إلى أبي نصر المصري وعزا روايتها إلى القاسم ابن جريان الدمشقي. ثم مقامات السيوطي وهي بالرسائل أشبه منها بالمقامات.